خطبة عيد الأضحى (١)

سيدنا إبراهيم عليه السلام المعلم

المنحة بعد المحنة

الله أكبر الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر الله أكبر ولله الحمد.

عباد الله قدم رسول الله ﷺ المدينة ولهم يومان يلعبون فيهما في الجاهلية فقال ﷺ: (**مَا هَذَانِ الْيَوْمَانِ؟ قَالُوا: كُنَّا نَلْعَبُ فِيهِمَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَبْدَلَكُمْ بِهِمَا خَيْرًا مِنْهُمَا: يَوْمَ الْأَضْحَى، وَيَوْمَ الْفِطْرِ**)[1]، نعم هذا عيدنا الذي منّ الله به علينا عيد الأضحى، وفي هذا العيد العظيم ترجع بنا الذكريات تتعمق في بطون التاريخ الإنساني العميق لنقف على أمر بل نتعلم من بطل هذه القصص المعلم سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

وبدون ترتيب للأحداث نكشف عن هذه الدروس!

أولًا: وهو الاستسلام لشرع الله والانقياد بمسكنة وتذلل وثقة بالله تعالى.

هذا هو الدرس الذي نتعلمه من قصص سيدنا إبراهيم ولهذا نعته الله قائلًا: ﴿ **إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾** ﴾[هود: ٧٥]، فتعالوا معي نتعلم بإذن الله الواحد الأحد:

الموقف الأول:

نشأ سيدنا إبراهيم في بلاد العراق وكان أبوه نجارًا تخصص في صناعة الأصنام التي كان يعبدها مواطنوه فكره ذلك عليه السلام وكان عمره حينئذٍ ستة عشرة سنة﴿ **فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا** ﴾[الأنبياء: ٥٨]، كسرها كلها إلا كبيرًا لهم، فاتفقوا عليه وأرادوا أن يبطشوا به وقال ملكهم: ﴿ **حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾** ﴾[الأنبياء: ٦٨]، فجمعوا حطبًا كبيرًا جدًا قال السدي: (**حَتَّى إِنْ كَانَتِ الْمَرْأَةُ تَمْرَضُ، فَتَنْذُرُ إِنْ عُوفِيَتْ أَنْ تَحْمِلَ حَطَبًا لِحَرِيقِ إِبْرَاهِيمَ، ثُمَّ جَعَلُوهُ فِي**

[1] صححه الألباني رحمه الله.

جَوْبة مِنَ الْأَرْضِ، وَأَضْرَمُوهَا نَارًا، فَكَانَ لَهَا شَرَرٌ عَظِيمٌ وَلَهَبٌ مُرْتَفِعٌ، وَجَعَلُوا إِبْرَاهِيمَ عليه السلام فِي كِفَّةِ الْمَنْجَنِيقِ)[1]؛ وألقوه في النار فلما ألقوه قال: **(حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)**[2].

وذكر بعض السلف: **(أَنَّهُ عَرَضَ لَهُ جِبْرِيلُ وَهُوَ فِي الْهَوَاءِ، فَقَالَ: أَلَكَ حَاجَةٌ؟ فَقَالَ: أَمَّا إِلَيْكَ فَلَا، وَأَمَّا من الله فبلى)**[3].

يقول ابن عباس: **(لَمَّا أُلقيَ إِبْرَاهِيمُ جَعَلَ خَازِنُ الْمَطَرِ يَقُولُ: مَتَى أُومَرُ بِالْمَطَرِ فَأَرْسِلُهُ؟ قَالَ: فَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ أَسْرَعَ مِنْ أَمْرِهِ، قَالَ اللَّهُ: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩﴾ قَالَ: لَمْ يَبْقَ نَارٌ فِي الْأَرْضِ إِلَّا طُفِئَتْ)**[4]، **(وَلَمْ تُحْرِقِ النَّارُ مِنْ إِبْرَاهِيمَ سِوَى وِثَاقِهِ)**[5].

هكذا عباد الله أطاع الله فلم يشرك به ولم يفعل المنكر فجاءته المحنة فصبر فكانت المنحة: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩﴾ [الأنبياء: ٦٩].

الموقف الثاني:

لما امتثل لشرع الله فلم يمكث مع الكفار في شركهم كانت المحنة، فخرج هو وزوجه سارة إلى مصر وكان يحكمها الهكسوس (العماليق)، وكان أحد ملوكهم ينتزع الزوجات الجميلات بعد أن يقتل أزواجهن، فعن أبي هريرة رضي الله عنه لما تكلم رسول الله ﷺ عن سيدنا إبراهيم قال: **(فَإِنَّهُ قَدِمَ أَرْضَ جَبَّارٍ، وَمَعَهُ سَارَةُ، وَكَانَتْ أَحْسَنَ النَّاسِ، فَقَالَ لَهَا: إِنَّ هَذَا الْجَبَّارَ إِنْ يَعْلَمْ أَنَّكِ امْرَأَتِي، يَغْلِبْنِي عَلَيْكِ، فَإِنْ سَأَلَكِ، فَأَخْبِرِيهِ أَنَّكِ أُخْتِي، فَإِنَّكِ أُخْتِي فِي الْإِسْلَامِ، فَإِنِّي لَا أَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ مُسْلِمًا غَيْرِي وَغَيْرَكِ، فَلَمَّا دَخَلَ أَرْضَهُ، رَآهَا بَعْضُ أَهْلِ الْجَبَّارِ أَتَاهُ، فَقَالَ لَهُ: لَقَدْ قَدِمَ أَرْضَكَ امْرَأَةٌ، لَا يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تَكُونَ إِلَّا لَكَ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا، فَأُتِيَ بِهَا، فَقَامَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام إِلَى الصَّلَاةِ، فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ، لَمْ يَتَمَالَكْ أَنْ بَسَطَ يَدَهُ إِلَيْهَا، فَقُبِضَتْ يَدُهُ**

---

[1] تفسير ابن كثير رحمه الله.

[2] رواه البخاري رحمه الله.

[3] تفسير ابن كثير رحمه الله.

[4] تفسير ابن كثير رحمه الله.

[5] تفسير ابن كثير رحمه الله.

قَبْضَةً شَدِيدَةً، فَقَالَ لَهَا: ادْعِي اللَّهَ أَنْ يُطْلِقَ يَدِي، وَلَا أَضُرُّكِ، فَفَعَلَتْ، فَعَادَ، فَقُبِضَتْ أَشَدَّ مِنَ الْقَبْضَةِ الْأُولَى، فَقَالَ لَهَا مِثْلَ ذَلِكَ، فَفَعَلَتْ، فَعَادَ، فَقُبِضَتْ أَشَدَّ مِنَ الْقَبْضَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ، فَقَالَ: ادْعِي اللَّهَ أَنْ يُطْلِقَ يَدِي، فَلَكِ اللَّهَ أَنْ لَا أَضُرَّكِ، فَفَعَلَتْ، وَأُطْلِقَتْ يَدُهُ، وَدَعَا الَّذِي جَاءَ بِهَا، فَقَالَ لَهُ: إِنَّكَ إِنَّمَا أَتَيْتَنِي بِشَيْطَانٍ، وَلَمْ تَأْتِنِي بِإِنْسَانٍ، فَأَخْرِجْهَا مِنْ أَرْضِي، وَأَعْطِهَا هَاجَرَ، قَالَ: فَأَقْبَلَتْ تَمْشِي، فَلَمَّا رَآهَا إِبْرَاهِيمُ عليه السلام ، انْصَرَفَ، فَقَالَ لَهَا: مَهْيَمْ؟ قَالَتْ: خَيْرًا، كَفَّ اللَّهُ يَدَ الْفَاجِرِ، وَأَخْدَمَ خَادِمًا)[1]؛ ونجاه الله تعالى.

أطاع الله سبحانه وامتثل أمره ولم يمكث مع المشركين فجاءته المحنة فصبر، فكانت المنحة أنه نجا بل وأعطاه النمرود هاجر تخدم سارة وكان منها المنحة سيدنا إسماعيل عليه السلام.

الموقف الثالث:

لما أمره الله تعالى أن يخرج بهاجر وابنها من فلسطين إلى الحجاز وانتهى إلى الوادي التي قامت فيه بعد ذلك (مكة) ووضعها هناك ووضع معها جرابًا فيه تمر وسقاء فيه ماء وتركهما فتتبعته أم إسماعيل فقالت: (**آللَّهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا، قَالَ: نَعَمْ، قَالَتْ: إِذًا لَا يُضَيِّعُنَا ثُمَّ رَجَعَتْ فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لَا يَرَوْنَهُ اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ الْبَيْتَ ثُمَّ دَعَا**)[2] وانصرف.

وكاد الطفل وأمه يموتان لولا أن الله فجر زمزم عند الطفل وأرسل إليها قبيلة جرهم ونجت أم إسماعيل وابنها، فقد أطاع الله سبحانه لما أمره فكانت المحنة فصبر، فكانت المنحة (نجاة أهله ورضا الله تعالى).

الموقف الرابع:

لما أمره الله تعالى ببناء الكعبة سارع وقال لابنه: (**يَا إِسْمَاعِيلُ إِنَّ رَبَّكَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ لَهُ بَيْتًا، قَالَ: أَطِعْ رَبَّكَ، قَالَ إِنَّهُ قَدْ أَمَرَنِي أَنْ تُعِينَنِي عَلَيْهِ، قَالَ: إِذَنْ أَفْعَلَ، أَوْ كَمَا قَالَ: قَالَ: فَقَامَا فَجَعَلَ إِبْرَاهِيمُ يَبْنِي وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ وَيَقُولَانِ: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ**

---

[1] رواه مسلم رحمه الله.

[2] رواه البخاري رحمه الله.

﴿ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[البقرة: ١٢٧])[1]، أطاع أمره سبحانه فكانت المحنة وهي مشقة البناء ثم كان المنحة ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [الحج: ٢٧].

الموقف الخامس والأخير:

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ [الصافات: ١٠٢]، أشد الابتلاءات و البلاءات.

بلغ معه السعي؛ قال ابن عباس ومجاهد: (**يَعْنِي: شَبَّ وَارْتَحَلَ وَأَطَاقَ مَا يَفْعَلُهُ أَبُوهُ مِنَ السَّعْيِ وَالْعَمَلِ، ورُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ وَحْيٌ**)[2].

واستجاب سيدنا إبراهيم دون أن يعترض بل لبى بلا انزعاج، واستسلم بلا جزع، وأطاع بلا اضطراب، وعمق البلاء في أنه هو الذي سوف ينفذ الأمر فاستجاب للأمر واستسلم وتذلل وتمسكن لله وأطاعه وكله ثقة بالله وتوكل عليه وهكذا كان ابنه ﴿ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الصافات: ١٠٢]، لم يأخذها بطولة ولا شجاعة بل طاعة واستعانة، لم يظهر لشخصه ظلًا ولا حجمًا ولا وزنًا إنما رجع الفضل لله ﷻ: ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الصافات: ١٠٣]؛ استسلما للأمر وانقادا له وصرعه على جبينه ليذبحه من قفاه ليكون أهون عليه، فعن ابن عباس قال: (**وثَمّ تَلَّه لِلْجَبِينِ، وَعَلَى إِسْمَاعِيلَ قَمِيصٌ أَبْيَضُ، فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَتِ، إِنَّهُ لَيْسَ لِي ثَوْبٌ تُكَفِّنُنِي فِيهِ غَيْرُهُ، فَاخْلَعْهُ حَتَّى تُكَفِّنَنِي فِيهِ. فَعَالَجَهُ لِيَخْلَعَهُ، فنُودِيَ مِنْ خَلْفِهِ ﴿ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ﴾، فَالْتَفَتَ إِبْرَاهِيمُ فَإِذَا بِكَبْشٍ أَبْيَضَ أَقْرَنَ أَعْيَنَ**)[3].

---

[1] رواه البخاري رحمه الله.

[2] تفسير ابن كثير رحمه الله.

[3] قال الهيثمي رحمه الله: رجاله ثقات، وصحح إسناده العلامة أحمد شاكر رحمه الله.

أطاع سيدنا إبراهيم الأمر واستسلم وتذلل وتمسكن لله تعالى فكانت المحنة فصبر، فكانت المنحة ﴿ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَٰٓؤُا الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الصافات: ١٠٥ - ١٠٧]، فكانت حياته كلها محن فاستجاب وصبر فكانت المنحة الكبيرة.

وقوله تعالى يصفه ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ [هود: ٧٥]، وجعله خليله، ولهذا يقول العلماء: (**وَهَذَا هُوَ السِّرُّ الَّذِي لِأَجْلِهِ – وَاللَّهُ أَعْلَمُ– أُمِرَ الْخَلِيلُ بِذَبْحِ وَلَدِهِ، وَثَمَرَةِ فُؤَادِهِ وَفِلْذَةِ كَبِدِهِ، لِأَنَّهُ لَمَّا سَأَلَ الْوَلَدَ فَأُعْطِيَهُ، تَعَلَّقَتْ بِهِ شُعْبَةٌ مِنْ قَلْبِهِ، وَالْخُلَّةُ مَنْصِبٌ لَا يَقْبَلُ الشَّرِكَةَ وَالْقِسْمَةَ، فَغَارَ الْخَلِيلُ عَلَى خَلِيلِهِ: أَنْ يَكُونَ فِي قَلْبِهِ مَوْضِعٌ لِغَيْرِهِ فَأَمَرَهُ بِذَبْحِ الْوَلَدِ لِيُخْرِجَ الْمُزَاحِمَ مِنْ قَلْبِهِ، فَلَمَّا وَطَّنَ نَفْسَهُ عَلَى ذَلِكَ، وَعَزَمَ عَلَيْهِ عَزْمًا جَازِمًا: حَصَلَ مَقْصُودُ الْأَمْرِ، فَلَمْ يَبْقَ فِي إِزْهَاقِ نَفْسِ الْوَلَدِ مَصْلَحَةٌ، فَحَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، وَفَدَاهُ بِالذِّبْحِ الْعَظِيمِ**)[1].

عباد الله نتعلم من هذه الدروس سرعة الانقياد لأوامر الله تعالى وإن كانت شاقة ثم تنفذها بمذلة العبد ومسكنة المنقاد ومحبة المحب ثم لا تنتظر المنحة مباشرة بل قد تصاب بالمحنة، ألم تسمع إلى قول النبي ﷺ عندما سئل: (**أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاءً؟ قَالَ: الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ، يُبْتَلَى النَّاسُ عَلَى قَدْرِ دِينِهِمْ، فَمَنْ ثَخُنَ دِينُهُ، اشْتَدَّ بَلاؤُهُ، وَمَنْ ضَعُفَ دِينُهُ ضَعُفَ بَلاؤُهُ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيُصِيبُهُ الْبَلاءُ حَتَّى يَمْشِيَ فِي النَّاسِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ**)[2].

ثم تجد بعد ذلك المنحة إما في صحتك أو في أولادك أو في دينك في الدنيا والآخرة فانقد واستسلم لأمر ربك، فإن كنت تأكل حرامًا فانقد للملك وتذلل وَكُلْ حلالًا، وإن كنت ترتشي وتأكل أموال الناس بالباطل فاستسلم وتذلل لأمر ربك ولا تأكل إلا طيبًا، وإن كنت ترائي وتريد المجد والسمعة ولا تريد وجه الله فأصلح أعمالك وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة وإن كنت قاطعًا

[1] مدارج السالكين، لابن القيم رحمه الله.

[2] صححه الألباني رحمه الله.

لرحمك فاستسلم لقوله تعالى ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ ﴾[محمد: ٢٢].

ارجع إلى ربك واخش ظلمة القبر والسؤال فيه ثم بعد ذلك ... أتدرون ما بعده؟!

وبَعدَهُ العَرْضُ الذِي ... يَحْوِي الحَيِيَّ وَالبذِى

والمُبْتَدِي والمُحْتَذِي ... ومَنْ رَعَى ومَن رُعِي

فيَا مَفَازَ المُتِقَّى ... ورِبْحَ عَبْدٍ قَدْ وُقِي

سُوءَ الحِسَابِ المُوبِقِ ... وهَوْلَ يَومِ المَفْزَعِ

ويا خَسَارَ مَنْ بَغَى ... ومَن تَعَدَّى وطَغَى

وشَبَّ نِيْرانَ الوَغَى ... لِمَطْعَمٍ أَوْ مَطْمَعِ

يا مَن عَليهِ المُتَّكَلْ ... قَد زَادَ مَا بي مِن وَجَلْ

لِمَا اجْتَرحْتُ مِن زَلَلْ ... فِي عُمْرِيَ المُضَيَّعِ

فاغْفِرْ لِعَبْدٍ مُجْتَرِمْ ... وارْحَمْ بُكَاهُ المُنْسْجِمْ

فأنتَ أَوْلَى مَن رَحِمْ ... وخَيْرَ مَدْعُوٍّ دُعِي